

عبد الجليل مرتاض فارس اللغة والبيان - قراءة في المنجز

الدكتورة: جميلة روقاب

الدكتور: محمد حاج هني

d.rougab@univ-chlef.dz

m.hadjhenni@univ-chlef.dz

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

الملخص:

أنجبت الجزائر العديد من العلماء والأدباء الذين برزوا في الساحة الوطنية والدولية، بفضل أعمالهم العلمية واللغوية الرائدة، وفي هذه الورقة البحثية تعريف بشخصية فارس لغوي جزائري نهدف إلى رد الاعتبار لهذه القامة العلمية، والاعتراف لها بالجميل، فنحن لم ننصفه كما يجب، وهذا رغم شهرته العلمية في العديد من المحافل اللغوية العلمية والدولية، فمن هو هذا الرجل؟ ما هي آليات الكتابة اللغوية والأدبية عنده؟ وما خصائصها؟

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية؛ العالم الجزائري؛ المؤلفات؛ عبد الجليل مرتاض؛ العنوانية.

مقدمة:

حظي اللغوي الجزائري الأستاذ عبد الجليل مرتاض باهتمام واسع من قبل الباحثين والكتاب والمؤلفين، الذين ما فتئوا يدرسون الجوانب المختلفة لشخصيته العلمية من خلال ما قدمه للساحة الفكرية الجزائرية من آثار لغوية وأدبية، إذ أصبحوا يدجون بأرائه المقالات العلمية والرسائل الجامعية الأكاديمية والكتب الفكرية المبينة لهذه الجوانب؛ عرضا وتحليلا واستلهاما، شأنه في ذلك شأن فرسان اللغة وأساطين البيان ممن حُقّ لنا أن نفتخر بهم ونفاخر، وقد كشفت العديد من الدراسات الجامعية أسهم في كتابتها وتأليفها كتاب وباحثون جزائريون وعرب وتناولت بالدراسة والتحليل موضوعات وقضايا لغوية ونقدية مختلفة قدّمها الباحث، نعرض عناوين بعض منها في هذا المقال الذي يأتي بمناسبة تكريم هذا العالم الجزائري حفظه الله ورعاه

إنّا في هذه الورقة البحثية نسعى إلى تسليط الضوء على جهيز من جهابذة اللغة وأساطين البيان، وعلم من أعلام الجزائر في العصر الحديث والمعاصر مع بيان جهوده اللغوية؛ إنّه الأستاذ عبد الجليل مرتاض، إذ قام هذا الرجل بتأليف العشرات من الكتب، وأنجز العديد من الأبحاث والكثير منها تعدّ أعمالا لغوية في (النحو العربي وفقه اللغة واللسانيات والأسلوبية وعلم الدلالة... الخ)، ونهدف من وراء هذا العرض إلى رد الاعتبار لهذه القامة العلمية والاعتراف لها بالجميل، فنحن لم ننصفه كما يجب وهذا رغم شهرته العلمية في العديد من المحافل اللغوية العلمية والدولية.

1- سيرة علمية للأستاذ عبد الجليل مرتاض:

يعيش الأستاذ عبد الجليل مرتاض -حفظه الله ورعاه بيننا ولله الحمد- حياة علمية حافلة بالمنجزات اللغوية والفكرية، فهو ابن منطقة مسيردة بولاية تلمسان، حائز على العديد من الشهادات العلمية العليا على غرار: شهادة دكتوراه دولة في الدراسات اللغوية، يشغل منصب أستاذ التعليم العالي بجامعة أبي بكر

بلقايد تلمسان، كما درس لسنوات في بعض من الجامعات كجامعة جيلالي ليابس بولاية سيدي بلعباس وغيرها كأستاذ زائر، ومن المهام الإدارية التي أسندت إليه في التعليم العالي: رئاسته قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تلمسان (1978 . 1981) مدير معهد اللغة والأدب العربي بجامعة تلمسان في الفترة الممتدة ما بين (1981 . 1984)، ومدير المعهد الوطني للتعليم العالي للغات والأدب العربي (جامعة تلمسان) في السنوات (1984 . 1990)، وعضو اتحاد الكتاب الجزائريين منذ (1988) لليوم، وعضو اللجنة الوطنية لبرنامج اللغة العربية، وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية (بالمملكة العربية السعودية -الرياض)، وعضو المجلس الأعلى للغة العربية منذ 1998 لليوم، إضافة لعضويته في هيئة التحرير لمجلتها التابعة للمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر منذ 1999 لليوم، وعضو دائم بالمجمع الجزائري للغة العربية، وعضو في هيئة تحرير مجلة " المجمع الجزائري للغة العربية" ومدير مجلة المصطلح التي مختبر الجامعة، وخبير في مجلات جامعية، وطنية عديدة، وخبير في جائزة اللغة العربية التي يمنحها المجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر كل سنتين.

وإلى جانب هذه النشاطات له إسهامات علمية عامة تتجلى، في انجازاته العلمية ومداخلاته القيمة في عدة ملتقيات وطنية، ودولية داخل الجزائر، وخارجها.

وحياة الرجل العلمية مليئة بالأحداث والمواقف والتقلبات، والأسفار والرحلات، والجهود الكبيرة والأعمال الجليلة، ولذلك عني عدد من الباحثين والمؤلفين المحاضرين في هذا اللقاء العلمي اليوم باستعراض مسيرة حياة مرتاض عبد الجليل والمراحل التي مر بها، والأحداث التي عاصرها والمواقف التي وقفها من هذه الأحداث، والجهود التي بذلها في خدمة دينه ولغته ووطنه، ومن هذه الأعمال التي قدمها في الساحة اللغوية بالجزائر، وقد بلغت ستة وعشرين كتابا ويزيد، نورد هنا بحسب ترتيبها الألفبائي دون الزماني:

- بؤادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب، التحليل اللساني البنيوي للخطاب، الظاهر والمخفي (طروحات جدلية في الإبداع والتلقي)، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية، اللسانيات الأسلوبية، اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، الموازنة بين اللهجات العربية الفصيحة دراسة لسانية في المدونة والتركيب، الوظائف النحوية في مستوى النص، علم اللسان الحديث في القرآن، في عالم النص والقراءة، مباحث لغوية في ضوء الفكر اللساني الحديث، العربية بين الطبع والتطبيع، دراسات لغوية تحليلية لتراكيب عربية"، اللغة والتواصل، دراسة لسانية في الساميات واللهجات العربية القديمة، في رحاب اللغة العربية، في مناهج البحث اللغوي، البنية اللسانية في رسالة الضب للبشير الإبراهيمي، التحليل البنيوي للمعنى والسياق، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية.

ومن بين أعماله الأدبية نذكر: لا أحب الشمس في باريس، وجزائريات وغيرهما، كما أشرف البروفيسور عبد الجليل على العشرات من الرسائل والأطاريح العلمية الأكاديمية، وناقش العديد منها سواء بمؤسسة انتمائه، أو حتى بجامعات أخرى من الوطن، وغيرها كثير إذا ما رمنا الحديث عن كل الرسائل التي تولى الإشراف عليها فهي متعددة ومتنوعة الاختصاصات، أين جمعت بين علم النحو وعلم الدلالة - كما أشرنا سابقا- وعلوم أخرى على غرار علم الأصوات، اللسانيات، والبلاغة، وعلم الأسلوب، وفقه اللغة، هذا ما ينم عن الفكر

الموسوعي للباحث، فما يؤكد هذه الحقائق والشهادات هو اسهاماته الجليلة في تقويم ومناقشة الرسائل والأطاريح الجامعية منها، على سبيل المثال لا الحصر:

- قراءة في القراءات القرآنية، معجم القراءات القرآنية نموذجا من سورة المؤمنون إلى آخر سورة لقمان، دراسة إحصائية تحليلية، للطلاب المترشح بزواية مختار، (ماجستير) نوقشت بجامعة وهران بتاريخ: 24-04-2009م.

- قراءة في القراءات القرآنية، معجم القراءات القرآنية نموذجا من الآية 26 من سورة يونس إلى آخر سورة النحل، دراسة إحصائية تحليلية، للطالبة المترشحة: زدام سعاد، نوقشت سنة 2009م، رسالة ماجستير.

- المعاجم اللسانية المتخصصة عند العرب المحدثين، للطلاب المترشح: حاج هني محمد، أطروحة دكتوراه نوقشت 2013م.

- السياق اللغوي في تفسير الرازي، للطالبة المترشحة بن قبلية مختارية نوقشت بتاريخ: 20-05-2013م، أطروحة دكتوراه.

ولعل الجانب اللغوي كان العلامة الفارقة بينه وبين إخوانه الآخرين في رسم جوانب شخصيته العلمية والثقافية، هذا الجانب اللغوي والأدبي الذي ضرب فيه البروفيسور بقسط وافر وسبق فيه سبقا بعيدا، فالعالم اللغوي قد أوتي تبحرا في اللغة العربية وعلومها وفنونها وآدابها، وحفظ العديد من نصوصها شعرا ونثرا، وبلغ في الفصاحة والبيان مبلغا طمحت للوصول إليه قلوب الكثير من محبيه من القراء سواء أكانوا من تلامذته أو طلبته أو حتى من الباحثين المشتغلين في حقل اللغة، والمتابعين المهتمين بالدرس اللغوي العربي بعامة، والجزائري بخاصة من أولئك الغيورين على لغة الضاد.

وكان الأستاذ- ولا يزال حيثما حلّ، وفي أي مجلس علمي نزل، وفي أي مقام وقف إلّا ونلفيه يهرالقلوب بسحر بيانه وجودة كلامه وروعة خطابه. ولذلك، ما فتى الباحثون والمؤلفون ينتهون إلى أهمية دراسة هذا الجانب من شخصيته، وإبراز خصائصه التي تميز بها عن غيره علما وعملا.

فجاءت بعض الرسائل الجامعية التي أعدت لهذا الغرض، والتي تناولت جهوده وأعماله اللغوية والأدبية كموضوعات للدراسة، ما نذكر بعضها في عناوين الأبحاث العلمية التالية:

- جهود عبد الجليل مرتاض في مجال علم اللهجات العام، للطلاب المترشح بولغيقي مانت، بإشراف عبد القادر، نوقشت عام 2015.

- الدلالة الرمزية للمكان في رواية "لا أحبّ الشمس في باريس"، للطلاب المترشح زغودة إسماعيل، بإشراف الأستاذ عميش عبد القادر، نوقشت بتاريخ: 09-07-2014.

- جهود عبد الجليل مرتاض اللغوية في ترقية اللغة العربية، للطالبة المترشحة: خلواط طاوس، بإشراف الدكتور: صلاح يوسف عبد القادر، نوقشت بتاريخ: 17-12-2014.

هذا ما أمكننا الوقوف عليه مما كتب عنه من رسائل جامعية، ولا شك أن هناك غيرها مما لم نطلع عليه، وليس هذا فقط ما عندنا مما كتب عن الرجل، فهناك العشرات من بحوث المجلات الأكاديمية والمقالات العلمية، مما لا يمكننا استقصاؤه وتضمينه هذه الورقة البحثية، ولعل الله تبارك وتعالى أن ييسر لنا أو لغيرنا

إعداد بيبليوغرافيا شاملة عن هذا العالم الجزائري يجمع عناوين كل ما كتبه وكتب عنه، وما ذلك على الله بعزيز.

2- التجربة الروائية لعبد الجليل مرتاض:

لربما فرضت الظروف التي عاشها البروفيسور عبد الجليل مرتاض عليه أن يهتم بجانب آخر غير اللغة والنقد؛ ألا وهو جانب الكتابة الروائية والإبداع الأدبي، حيث تميّز الواقع الجزائري في النصف الثاني من القرن العشرين بهجرة الأدمغة الجزائرية في كافة التخصصات العلمية، وهو ما استدعى أن يُنْهَض العلامة اللغوي رفقة عدد من إخوانه العلماء والأدباء لتغيير هذا الوضع، وإصلاح أحوال البلاد والعباد من خلال تجاربه الروائية على غرار روايته "لا أحب الشمس في باريس"، وقد وظف مختلف وسائل الدعوة والتربية والتغيير التي من شأنها أن توصل إلى الغاية التي نهض لأجلها والهدف الذي عمل على تحقيقه من خلال أعماله الروائية الناجحة.

وإلى جانب الدراسات الجامعية والمؤلفات الفكرية التي ذكرناها فيما سبق، صدرت عن فضيلة البروفيسور عبد الجليل مرتاض عدة أعمال جماعية، تعاون على إعداد كل واحد منها عدد من الكتاب والباحثين الجزائريين وغيرهم من العرب، نذكر منها: أعمال اتحاد الكتاب العرب، وأعماله مع المجمع الجزائري ومركز ترقية اللغة العربية.

3- قراءة في مقدمات مؤلفات عبد الجليل مرتاض اللغوية:

ولسنا نرمي من وراء هذه المداخلة إلى رصد كلّ الجهود اللغوية والأعمال الأدبية لهذا الفارس اللغوي الكبير، بل نريد أن نخصّ بالبحث فيها على جانب بارز فيها، وهي جهوده اللغوية وبراعته في التأليف، فلاشكّ أنّ اللغة هي من صلب الدراسات اللسانية، وكيف يستفاد منه وأعماله الجليلة في ترقية اللغة العربية وازدهارها من خلال إبداعاته العلمية اللغوية المتنوعة.

ولأنّ المقام لا يسعنا للحديث عنها جملة وتفصيلا، سنكتفي بقراءة بعض ما ورد في ثنايا المقدمات لبيان مواطن الفصاحة والبلاغة في التأليف عنده خاصة ونحن نعاني اليوم تخمة في الكتابة، والمعضلة هي الوفرة الوافرة من المؤلفات والمؤلفين الذين يكتبون، إذا صحّ القول من يخرّبشون!

ووسط هذا الغناء الذي نشهده، غطت الرداءة على الكفاءة، فأصبح الواحد ممّا لا يعي أو يفرق بين المجيد والمسيء؛ لكن لا نتمنّى وجود لغة بلا لغويين، ولا أدب بلا أدباء، ولا فقه بلا علماء، بل نريد وجود الأفضل والأحسن لعربيتنا، وفضيلة البروفيسور عبد الجليل مرتاض لما تقرأ له أو تسمع لخطاباته وهو يحاضر أمامك ترتسم لك ملامح الفارس اللغوي المجيد، صاحب الفكر الثاقب والقلم الرشيق؛ لأنّك وبكل بساطة تقرأ للرجل دون أن تتحرّى كلّ جملة أو كلمة يكتبها أو يقولها والسّر في ذلك أنّك تثق فيه وفيما يكتب ويؤلف فجراه الله عنا خير الجزاء

والمأمل للمقدمات يكسب رؤية كاملة ودقيقة وواضحة لمحتويات كتبه، وللطريقة العلمية التي سلكها وهو يجمع المعلومات ويصنّفها، تصادير ومقدمات مرتاض لا تخلو من الحديث عن محتويات الكتاب، والموضوعات التي تطرق إليها، مبيّنا الطريقة العلمية التي اتبعها في جمع المعلومات وترتيبها، ومشيرا في أحيان

كثيرة عن الظروف المحيطة بالكتاب، مثل بيان الأسباب التي قادتته إلى كتابة هذا العمل، والأماكن المختلفة التي شهدت تأليفه؛ ويذكر أيضاً خبرته وباعه الطويل في المجال الذي يكتب فيه؛ كأن تكون له مؤلفات سابقة فيه، أو دروس ومحاضرات حوله...إن أسلوب الكتابة هو النمط الذي يختاره الكاتب للكتابة لقارئيه. ويكشف الأسلوب عن كل من شخصية الكاتب ورأيه، ولكنه يُظهر أيضاً كيفية تصور الكاتب للجمهور، ويختار مفهوم أسلوب الكتابة والذي يكشف بدوره عن هذه الخيارات التي يمكن أن يغير الكاتب العالم المفاهيمي للطابع العام للعمل. ويمكن أن يتم ذلك عن طريق تغيير بسيط للكلمات؛ البناء النحوي، تحليل الخطابات، إضفاء الأسلوب، وتنظيم عدد من الأفكار في أطر قابلة للاستخدام

وفرق آخر تمتاز به المقدمة التي يكتبها متراض لشخص آخر يضع كتاباً جديداً في سوق القراءة يقيم (يقرظ) فيها العمل، ويوضح مزاياه، والجديد الذي أضافه على مثيلاته من الأعمال السابقة من تصحيح أو استدراك..إلخ، وينبغي أن يكون كاتب هذا التقرير خبيراً بالموضوع الذي يقرّظه أو يقدّم له وهذا ما يتفرد به العلامة اللغوي عبد الجليل متراض.

وليس بخفي على أحد ممّا أن الكتابة هي واحدة من وسائل التعبير عن الذات وما يخالجنها من جموع العواطف والأحاسيس الوجدانية، فللكتاب أنماط وأشكال وأساليب متنوّعة تختلف باختلاف المصدر المغذّي ألا وهو الذهن البشري، فكل شخص يمتلك أسلوباً خاصاً ينماز به عن غيره على غرار بصمة أصبعه، أو بصمته الصوتية لا يشاركه فيه أحد مشاركة كاملة أو جزئية، والكاتب الباحث البروفيسور متراض له سياق معين وصيغه التي يستسيغها في الكتابة، وذلك بحسب ثقافته واطلاعه وغزارة المعلومات التي اكتسبها في مسيرته العلمية والعملية إضافة إلى خبرته الحياتية التي تعلّمها في مدرسة كبيرة هي مدرسة الحياة.

لأنّ في عالم الكتابة لا يهم أن تمتلك فكره معينة أو موضوعاً معيناً في عقلك؛ ولكن الأهم هو أن تعرف كيف تحوّل هذه الفكرة وهذا الموضوع إلى كلمات وكيف تستعمل طابع التشويق وبدون أن يشعر القارئ بالملل، وبذلك تراه يوجه إلى القارئ بمجموعه من الأسئلة ويجيب عليها بقدر ما يستطيع كذلك يريد الباحث لكل من يقرأ هذه الأسئلة أن يحاول الإجابة عنها وبذلك تعم الفائدة وما لم يشاهده الكاتب يشاهده غيره. من ذلك كقوله مثلاً:

"ما القارئ إلّا متلق خاطئ أو عفوي"، "ما النصّ إلّا متنزّه" ¹Parc.

هل ميّز العرب بين اللسان اللغة والكلام؟ ²

كيف تعامل اللغويون الرواد مع العربية؟ ³

(هل لدينا لسانيات عربية حديثة؟ ⁴

وفي قوله: (هل من تحديد منتهى للجملة؟ ⁵

وقبل الشروع في تقصي أسلوب مقدماته المشوّق، وجب التعرض للعنوان الذي يكون هو الأكثر تحديداً من الموضوع؛ إذ يشبه العنوان بالنسبة للموضوع السهم المرسوم على اليافطة، فكلاهما يشير إلى المكان، أو الطريق المعني؛ إلّا أنّ السهم أكثر تحديداً لذلك المكان، أو الطريق، ويشترط فيه حسب اتفاق

المختصين الجدة والابتكار، والدقة والوضوح، والتحديد ومعناه؛ ألا يكون العنوان طويلاً مملاً، ولا يكون قصيراً مخلاً⁶. وهذا ما نراه في عناوين كتبه وأبحاثه العلمية.

4- الدقة في العنوان:

وللعنوان أيضاً دور بديهي هام حيث أنّ أوفق المؤلفات العلمية الأكاديمية وأنجحها، لا تجدي نفعا إذا أهمل ضبط العنوان فيها، وعندما نقرأ عناوين هذه الكتب التي ألفها البروفيسور، فإنّها توحى بالجدة، والدقة والإحكام على الكتاب وغلافه، وهذا خير دليل قاطع على تلك العناية وحسن التوجيه والخبرة الطويلة في التربية والتعليم من قبل الرجل.

وحتى يكتب الباحث موضوعاً يلقي النجاح عليه أن يبحث عن الجديد فلاشك أن الكل يسعى للجديد والجديد دائماً له بريق خاص وإذا سعينا إلى الجديد علينا أن نبتعد عن المنقول والمكرر فما تكتبه أنت في مقالاتك كتبه غيرك وما تطرق إليه غيرك لن يُنظر إليه وبالتالي عرف هذا الفارس اللغوي كيف يستقطب القراء والباحثين بأسلوبه المشوّق في الإبداع والتأليف بعدة طرق أولها وأنجحها باختيار العنوان البراق الجذاب الذي يشد ويجذب كل من يشاهده ويغريه فيكون ذلك بداية المصيدة للدخول. إنّ "العنونة" غدت هاجساً مُلحاً للناص وهو يقدّم نصّه للقارئ نظراً للسلطة التي يمارسها "العنوان" في العملية الأدبية إبداعاً، والغواية المثيرة التي يبثها حول النص تلقياً، بمعنى أنّ "العنونة" جزء لا يتجزأ من استراتيجية الكتابة لدى الناص لاصطياد القارئ وإشراكه في لعبة القراءة، وكذلك بعدد من أبعاد استراتيجية القراءة لدى المتلقي في محاولة فهم النص وتفسيره وتأويله.

إذ يمثل العنوان في الدراسات الحديثة والمعاصرة العتبة الأولى التي يطأها الباحث في محاورته للنص الأدبي باعتباره تقنية إجرائية ناجعة في مقارنة النص لاكتشاف أغواره ومقاصده قصد استنطاقه واستكناه بنياته وأبعاده الدلالية والرمزية وتفجير علاماته وتتبع نظام علاقاته التكوينية التوزيعية الممتدة على طول نسيج النص وكشف خباياه وبهذا تكون الخطوة الأولى في التشويق في حسن العنونة.

وللحديث عن آليات الكتابة فإنّ ممارسة البحث والمداومة على فعل الكتابة طريق إلى منهجة الفكر وتفعيل عملية الفهم والاستيعاب السريع للمادة المكتوبة، واستثمارها بطريقة حاذقة في الجانب المقروء، من خلال تحليلها وإعادة تركيبها بطريقة منطقية ومنظمة⁷. إنّ تحصيل اللغة من خلال البحوث والمشاركات العلمية والدولية يتم بعد قراءات كثيرة، فمن خلال المواظبة على ذلك، تزداد الثروة اللغوية للباحث ما يؤهله للتواصل كتابياً مع القارئ دون صعوبات، وعليه فإنّ امتلاك مقدرة البحث والتأليف والإبداع لا تحصل إلاّ بالممارسة الفعلية لما سبق ذكره، فضلاً عن توفر أجواء التحفيز النفسية والاجتماعية والمالية الملائمة، حتى تصبح عادة راسخة في شخصية الباحث والمفكر؛ ذلك أنّ قواعد هذه الملكة لا تكتسب بين ليلة وضحاها.

والمأمل لعناوين مؤلفاته الفرعية تجدها على أنواع منها:

- في شكل جمل (قد تكون فعلية، أو اسمية، أو أشباه جمل) مثل:

- الجمل الاسمية: (معالم اللسانيات الجغرافية في التراث العرب، مواقع الرواة، علم اللهجات الأدبي...⁸

(اللغة كلّها سواء.. خرق دلالي أم قواعدي؟...⁹

- الجمل الفعلية كما في صياغته للعناوين الفرعية التالية: (ليست الكتابة إلا شفرات لسانية¹⁰، (نعبّر ولا نكون...¹¹.

- شبة جملة مثل: (من العادات الخطابية عند العرب¹²، في ضوء الآنية والزمانية¹³.

والعنوان قد لا يدل على الموضوع والموضوع قد لا يعنى العنوان وقد لا تكون هناك صلة بينهم ولكنه يعنى أن الرجل استدرجك لتقرأ له وجمال العنوان مثل المرأة الحسناء التي تلفت نظرك دون أن تدرك محتواها وحصيلتها العقلية.

5- الجدة في الموضوع:

الطريقة الثانية وهي فكرة الموضوع المثير لفعل القراءة مثل السبق الصحفي وعادةً يكون محور اهتمام الطلاب والباحثين المتعطشين للعلم والمعرفة؛ وهناك ملاحظة هامة لابد من ذكرها فلا يهم أن تشارك في ألف موضوع ولكن الأهم أن تكتب موضوعا يشاركك فيه الألف ويبدو أن فارس اللغة والبيان من هذه القاعدة المنطقية انطلق فوصل ونجح.

إن عملية اختيار الموضوع للدراسة والتأليف فيه غالباً ما تكون نابعة من رغبة المؤلف وقناعته به، إذ لا يحصل صدفة، بل من اهتمام الباحث، وما ينتج عن ذلك من المطالعة وامتلاك المعرفة في التخصص ويضاف إلى ذلك الخلفية الفكرية للباحث¹⁴. وما يسم عناوين تلك المؤلفات اللغوية – السالفة الذكر- أنها تتسم بالجدّة وإن كان البعض منها مطروقا قبلاً؛ غير أنه يتمّ التعرض إليها بطريقة جديدة لجوانب أخرى كانت غامضة ومجهولة تحتاج إلى بحث وتحليل أو تحقيق على غرار مؤلفه المميز – بالنسبة للمتحدثة شخصياً- البنية اللسانية في رسالة الضب للبشير الإبراهيمي¹⁵، وتتجلى القيمة التي نكتشفها لهذه الأعمال اللغوية المستحقة من حيث النوعية والأهمية، والأستاذ واحد من الكوادر الذين يتمتعون بالقدرة على اقتراح زوايا جديدة لأيّ موضوع حتى يكتب له النجاح والتوفيق.

العرب تقول في الزوايا خبايا، وهذا المثل أصدق ما يكون وأجلى ما يبدو في ديباجات الكتب ومقدماتها؛ إذ فيها من الكنوز المخبوءة، والفوائد المكنونة ما لا يوجد ربما في الكتاب، ولعل كثيراً ممن يقرؤون للأستاذ عبد الجليل مرتاض أو غيره يمرون بمقدمة الكتاب مرور الكرام، يظنون أن الأجدى هو القفز عنها إلى بداية الكتاب؛ إعمالاً للعقل فيما هو أهم، وصرافاً للوقت فيما هو أحق، وهذا من الخطأ الذي ينبغي الابتعاد عنه؛ فالمقدمة إن هي إلا بوابة الكتاب ومفتاحه، وكان أستاذي حلام الجيلالي (رحمه الله) يقول لنا: "إذا اشتريتم كتاباً ولم يكن من المتاح أن تقرأوه عن قريب، فلا تضعوه من أيديكم قبل أن تقرأوا فيه شيئين اثنين: المقدمة، وفهرس الموضوعات؛ فكلاهما يقدم فكرة واضحة وتصوراً دقيقاً لما عليه الكتاب".

5- ضبط المصطلحات اللغوية والنقدية:

يميل فضيلة البروفيسور إلى التعريب في تعامله مع المصطلحات العلمية المستحدثة الموضوعية (المولدة) فنجد العديد منها مستعملاً في مستويات التحليل اللساني للنصوص الأدبية والخطابات اللغوية التراثية منها والمعاصرة، مثلاً نراه يستخدم المعرّبات في مصطلحات من قبيل (لكسيكي- السيميكي- السيمانطيكي- والسيمانطيقية- الديالكتولوجيات- سانتكسية- السيميوطيقي...الخ)

إلى جانب التعريب يجنح مرتاض في أحيان كثيرة لما يعرف بالنحت فيكتب قائلا: الفقلغة والفقلجة والبينصوصية... وغيرها كثير وهذا ما يعطي انطبعا حسنا عن الباحث وما يتمتع به من ثراء لغوي وتمكن دلالي في اللغة من ناحية الاشتقاق أو النحت والتعريب وهذا خير برهان على امتلاك هذا الفارس ناصية في اللغة العربية التي تعدّ أداة للتنافس المرجعي الفكري والثقافي والتموقع الاجتماعي والتربوي والإعلامي .

وعن منهج تفكير الجليل وطبيعة تكوينه العلمي، فيمكننا القول أنّ المنهج الذي نهجه عبد الجليل مرتاض يدلّ على مقدار ما يستطيع العقل والإرادة والعمل الدؤوب في الارتقاء من منصب لآخر عظيم ولله الحمد. فالبروفيسور عبد الجليل مرتاض هو بصدق في العربية معجم لغوي يحفظ اللغة المدوّنة في المعاجم والقواميس، وعدالته الفكرية انعكست على رؤيته لصلة الرحم العلمية المتجذرة في التراث العربي الأصيل والممتدة إلى عمق الحداثة والمعاصرة، إنّه اليوم يعلمنا كيف نمسك العصا من وسطها، وهذا الشيء اللافت للتنبيه جعله صاحب ثقافة لغوية متميزة، صقلتها أسفاره العديدة ومشاركاته العلمية في الملتقيات والمؤتمرات، وكذا احتكاكه بالكثير من كبار العلماء في الجزائر وخارجه.

خاتمة:

بعد هذا العرض المقتضب لمسار الورقة البحثية الذي تطرقت فيها إلى بعض الحثيات المرتبطة بجهود فضيلة البروفيسور عبد الجليل مرتاض، بدءا بتقصي سيرة الرجل العلمية العطرة التي نفتخر بها ونعتزّ دوما، أين أتبعناها بعملية شبه إحصائية لتلك الرسائل والأطاريح العلمية الأكاديمية -كعينات للدراسة- تولّى الأستاذ الدكتور إمّا الإشراف عليها أو مناقشتها، ووقفنا على بعض الفوائد المنشورة المستقاة من مقدمات بعض كتبه، سبقها حديث مختصر عن بلاغة البروفيسور اللغوية، فتبيّن لنا أنّ هذا الفارس اللغوي يتمتع بكفاءة علمية وخبرة واسعة أهلتة للوصول إلى هذا المستوى الذي أثر إيجابا على شخصية طلبته البحثية من خلال المواضيع التي قاموا بمعالجتها، فأصبحوا يدركون قيمة المقروء ويحسنون استغلاله على المنوال العلمي النزيه، وهذا ما سمح بتكوين مستنير أفضل للمتخرجين على يد فضيلة البروفيسور (أطال الله عمره) ووقفه لما يحب ويرضى في خدمة اللغة والأدب.

الهوامش:

¹ ينظر: الظاهر والمختفي، عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2005م، ص:133-134

² - ينظر: اللسانيات الجغرافية في التراث العربي، عبد الجليل مرتاض، دار الغرب، وهران، ط2003م، ص:66، 118.

³ - في رحاب اللغة العربية، عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2004م، ص:219.

⁴ - المرجع نفسه، ص:220

⁵ - التحليل البنيوي للمعنى والسياق، عبد الجليل مرتاض، دار هومه للطباعة والنشر، الجزائر، ط2010م، ص:68.

⁶ - ينظر: البحث العلمي، محمد عمر الزيان، دار الشروق، المملكة العربية السعودية، دط، 1981م، ص:17.

⁷ - ينظر: أثر المذكرات والمخصصات في التحصيل اللغوي، عبد الله بن علي ثقفان، ندوة ظاهرة الضعف اللغوي في المرحلة الجامعية، الإدارة العامة للثقافة والنشر بالجامعة، الرياض، 1418هـ-1997م، المجلد3، ص:78.

⁸ ينظر: اللسانيات الجغرافية، عبد الجليل مرتاض، ص189-191

⁹ - في رحاب اللغة، ص:90 وما بعدها

¹⁰ - الظاهر والمختفي، عبد الجليل مرتاض، ص: 133.

¹¹ - التحليل البنيوي...، عبد الجليل مرتاض، ص: 49.

¹² - اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، عبد الجليل مرتاض، ص: 191.

¹³ - الظاهر والمختفي، عبد الجليل مرتاض، ص: 134.

¹⁴ - في المناهج اللغوية وإعداد البحوث، صالح بلعيد، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2005م، ص: 82.

¹⁵ - أملاها الشيخ من حفظه يوم كان معتقلا بمدينة أفلو، وقد ضمّتها فوائد جلييلة، مسائل لغوية هامة. الرسالة تذكرنا بأعمال كبار العلماء في التراث العربي أمثال أبي العباس ثعلب، واليزيدي، والزجاجي، وأبي عالي القالي، وابن الحاجب وغيرهم، أضف إلى ذلك أنّ الرسالة تُصنّف ضمن مدونات كبار المعجميين الموسومة بـ (كتب الحيوان)، و (كتب الحشرات) ومنهم الجاحظ في كتابه (الحيوان). المتأمل في رسالة الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي الموسومة بـ (رسالة الضّب) يجدها بحق رسالة ذات قيمة علمية نفيسة، وفائدة جلييلة، وقد أملاها الشيخ من حفظه أيام كان في السجن بمدينة أفلو من الصحراء الوهرانية، وقد احتوت على فوائد، وأشعار، ومسائل لغوية، ولطائف كبيرة لا يستهان بها، تدلّ على عبقرية صاحبها، وملكته اللغوية النادرة، وهي تعدّ من ضرب كتب الأمالي. والرسالة تمتاز بأنها تندرج ضمن ما يُعرف عند أصحاب المعاجم بـ (كتب الحيوان)، وكتب الحيوان هي في الحقيقة كتب لغوية مفردة لنوع من أنواع الحيوان ككتب الخيل، والشاء، والإبل، والحشرات وغير ذلك، وقد كان هذا الضرب من التأليف معروفا في العصور الأولى من التدوين وصنّفت فيه العديد من الأسفار وقد تمّ طبع بعض منها. ينظر: البنية اللسانية في رسالة الضّب للبشير الإبراهيمي، عبد الجليل مرتاض، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2014م.